الفصل السادس

السوفييت وحرب ١٩٧٣ وآثار الحرب

يعد قرار حرب أكتوبر ١٩٧٣ من أبرز الأنشطة المتعددة للرئيس السادات كرجل دولة مسئول ، باتخاذ قرار الحرب ومراحله التى مر بها . . من مرحلة دراسة وتحليل الوقائع . إلى مرحلة ظروف القرار المعقدة فى الفترة السابقة على الحرب ، وارتباط صدور القرار بالتساؤلات التى أثيرت حول ما إذا كانت مصر حرة فى الاختيار أم لا ، خاصة تجاه إصرار السوفييت على ضرورة تجنب حدوث مجابهة شاملة بين العرب وإسرائيل ، فضلا عن تجاهلهم لنشاطات المقاومة الفلسطينية وتحفظهم فى جميع مواقفهم من منظمة التحرير الفلسطينية .

وكانت إسرائيل قد تجنبت مبادرة السادات لتحقيق السلام فى المنطقة عام ١٩٧١ . حينما تحدث فى خطاب له فى ٤ فبراير ١٩٧١ . وأشار إلى إمكان فتح قناة السويس للملاحة العالمية فى مقابل انسحاب جزئى للقوات الإسرائيلية ، على أساس أن هذا الانسحاب الجزئى المقترح ليس حلا منفصلاً ولاجزئيا وإنما هو

تحريك إجرائى يرتبط ارتباطاً عضوياً بالحل الشامل وتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بكل بنوده ، ويقول الرئيس السادات «لقد بادرت لأجل تحقيق السلام عندما دعوت إلى انسحاب إسرائيلى جزئى فى فترة محددة يترتب عليه فتح قناة السويس للملاحة الدولية باعتبارها خطوة أولى نحو اتفاقية جلاء عن الأراضى العربية المحتلة ، وإعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، لقد تجنبوا مبادرتى كخطوة أولية نحو الجلاء الكامل وإعادة الحق والسلام» .

أما الولايات المتحدة فقد حاولت حكومتها أن تجعل إسرائيل تقبل تعديلات طفيفة على حدود هدنة ١٩٤٩ . وأن أمن إسرائيل لا يحتاج بالضرورة إلى اكتساب مزيد من الأراضى . وأن حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ فى رأى الحكومة الأمريكية يجب أن تكون هى الحدود بين إسرائيل ومصر . ونتيجة للرفض الإسرائيلى فقد توقفت المحادثات بشأن التسوية الجزئية فى أواخر عام ١٩٧١ . .

وفى مارس ١٩٧٢ قدم الملك حسين مشروعه للتسوية السياسية مع إسرائيل بإنشاء مملكة عربية متحدة بعد إعادة صياغة الوحدة الأردنية الفلسطينية . ويكون رئيس هذه المملكة هو الملك حسين ، وتضم قطرى الأردن وفلسطين . وتكون عمان عاصمة المملكة كلها والقدس عاصمة للقطر الفلسطينى ، غير أن مشروع الملك حسين قوبل بالرفض فى أرجاء الوطن العربى ، وقد اعتبره الفلسطينيون مشروعاً مطوراً لمشروع إيجال ألون . وخاصة فى موضوع إعادة الضفة الغربية بمعظمها إلى السلطة الأردنية ولكن مع إقامة سلسلة من النقاط الاستيطانية تحت إشراف الجيش الإسرائيلى على طول نهر الأردن وفى ضواحى القدس وجبل الخليل .

ومن هنا أيقن السادات تماماً أن تسوية النزاع سلمياً لن يتم إلا من خلال عمل عسكرى تشارك فيه القوات المسلحة المصرية بالعبء الأكبر ، وفى جميع زياراته للتشكيلات والوحدات المقاتلة كان السادات يركز على أنه لا بديل عن تحرير الأرض ، وأن ذلك يشكل عقيدة مقدسة بالنسبة لشعب مصر وله شخصياً . وراح السادات من أجل تحقيق ذلك يتبع أسلوب الشورى والدبلوماسية الهادئة مع الإخوة العرب مع احترام وتقدير لظروف كل بلد عربى . وفى حديثه يوم ٢٣ يوليو ١٩٧٣ قال « إن موقفنا من وحدة العمل العربى هو أننا نرحب بكل تعاون وتنسيق بين القوى العربية على امتداد مناطقها الجغرافية وعلى اختلاف أنظمتها ، وفى لحظات المصير العربى ينبغى أن نرتفع فوق كل الصراعات والخلافات » .

وقد راعى السادات فن العمل الدبلوماسى على الصعيد العربى والعالمى بكل تجربة مصر فى الحروب الثلاث السابقة . حيث استلزمت الحرب القادمة – أى حرب ١٩٧٣ – استخدام أقصى براعة رجل الدولة وتخيله وجلده وروح الدهاء والمنهاج العلمى . وهو ما أعطى المسئولين المصريين – وخاصة العسكريين – قواعد رقية لقراراتهم . وما هو صحيح على الصعيد العسكرى صحيح أيضاً على الصعيد السياسى . حيث اهتم السادات بعامل الزمن والعامل البشرى أيضاً . ففى عامل الزمن يكون اتخاذ القرار فى فترة محسوبة ومدروسة . وفى تاريخ العلاقات الدولية أمثلة عديدة مشتقة من عامل الزمن ، لعل أبرزها بهذا الخصوص ظروف دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى ، عندما تريث الرئيس ولسن قبل أن يصدر قراره الشهير بدخول بلاده هذه الحرب ، لأن ويلسون كان ميالا بفطرته إلى السلام .

وإزاء فعل إسرائيل طوال ثلاث حروب سابقة جاء رد السادات معدًّا بنضج وروية . ولكنه قاسٍ أيضاً . حيث كان السادات ملزماً بالتفكير فى أن أى قرار يتخذه سيجر إلى نتائج ويثير مجموعة من ردود الفعل السياسية . وخاصة من جانب قوى السوفييت المضادة فى هذه الفترة . والتى لم تفلح قطّ فى إكراهه على التراجع عن هذه الحرب . وهكذا هيأ السادات لهذه الحرب بمزيد من التكتيك الدبلوماسى . . أى العلاقة بين الأهداف والوسائل . فقد تابعت القيادة المصرية المساعى الدبلوماسية آنئذ . وكانت آخر هذه المحاولات قبيل اتخاذ قرار القتال . . ما قام به الرئيس السادات من إرسال مستشاره للأمن القومى للقيام بجولة شملت لندن وبون وموسكو وواشنطن . وبعد عودته من هذه الجولة بدأ التحول الجذرى فى الموقف واتخذ قرار القتال الذى كان لامناص منه .

وتحمل السادات وحده مسئولية اتخاذ القرار . مع أن ذلك ليس أمراً سهلاً . وقد مثل القرار بصفته فعل الإرادة المصرية . إنه لا يمكن أن يفسر بمسبباته فحسب . بل كذلك بنتائجه . حيث جاء رد الفعل العربى والعالمى فيما بعد مؤيداً له تماماً . وكان من الممكن أن يتعرض الرجل لأخطار شخصية عندما أعلن حتمية القتال مع إسرائيل ، لكن السادات رغم رغبته الملحة فى السلام لم يستطع تجنب إصدار مثل هذا القرار الذى أملته الأسباب للتطلع نحو تحقيق الأهداف فى أن يسود السلام العادل والدائم فى المنطقة ولجميع أطراف النزاع .

لقد جاء قرار حرب أكتوبر ١٩٧٣ حصيلة سلسلة من المعطيات الشديدة التعقيد ، مثل التساؤلات حول العلاقة بين قيمة المغامرة ومستوى الخطر بالنظر إلى الهدف الذى تطلع إليه السادات . ومن هذه المعطيات الشديدة التعقيد أيضاً العلاقة بين الأهداف المنشودة والوسائل التى كانت تملكها مصر آنئذ . وهى بكل

المقاييس كانت إمكانات لا تتناسب أبداً مع الإمكانات الإسرائيلية المستمدة من الولايات المتحدة الأمريكية . لكن السادات كان مؤمناً بالطاقات الهائلة لدى شعب مصر وجيشه فى ضرورة تسوية الحساب مع إسرائيل وتلقينها درساً لا تنساه . وأن تتجرع من نفس الكأس التى أذاقتها للعرب فى حروب ثلاث سابقة .

وبالطبع فإن السادات كان يسعى إلى تحقيق السلام . وأيضاً إلى تحقيق المصلحة القومية لمصر والعرب . وكان ملزماً بأن يفكر فى مدى الانعكاسات وردود الفعل التى ستنجم عن القرار . لما يتعرض له من احتمالات الخطر داخلياً وخارجياً . داخلياً لأن السادات عليه أن يأخذ فى حسبانه بالعناية والتبصير الاعتبارات التى ستصيب كل الحياة السياسية فى مصر ، كما تصيب حياته السياسية الخاصة أيضاً . وخارجياً لأن الأخطار ستكون أكثر جسامة ، لأن الدولة كلها يمكن أن تتعرض لإجراءات انتقامية . وما سوف تجره الحرب أيضاً من خسائر فى الأرواح البشرية والاقتصاد . وما سوف ينتهى إليه الأمر إذا تعرض لخطر الهزيمة التى سوف يعقبها ضياع وحدة أرض الدولة أو ضياع استقلالها .

والتعرض لهذه الأخطار كافة جعل للسادات كرجل دولة مسئول مزاج المخاطر والمغامر . ولكن ماذا لو كان الخطر أكثر فداحة ؟ . . وعموماً فقد كان السادات من ذلك الطراز لرجال الدولة الذين يرضون بالحرب بنفوس راضية مهما كانت النتائج التى ستترتب على قراراتهم . لأن القرار العقلانى الكامل مستحيل تقريباً .

هكذا جاءت مخاطرة اتخاذ قرار الحرب من جانب السادات بالرغم من

الحسابات المعقدة للغاية لهذا القرار ، فتتأجه بالغة الخطورة . وذلك نظراً لأن معاييره غير مادية أو محسوبة . ومتغيراته غير مؤكدة وغير مأمونة وغير متيقنة . وتتصل بها خلفيات ومواقف ومتغيرات عسكرية ومدنية ، سياسية واقتصادية ، داخلية وخارجية ، عربية ودولية ، مباشرة وغير مباشرة ، علمية ومنطقية ، ولا موضوعية ولا منطقية . وقد عبر الرئيس السادات عن ذلك وهو يروى كيف اتخذ قرار الحرب قائلا :

إن أحداً لا يستطيع أن يقدر المعاناة التى يتعرض لها المسئول عن اتخاذ قرار الحرب . « ولقد عشت حياتى كضابط يعيش الحرب أو يعد نفسه للحرب . واتخذت بعيداً عن الجيش قرارات لعمليات وطنية تقوم على إطلاق النار . لكن كل هذا لا يقاس بمسئولية اتخاذ قرار حرب تشمل الأمة كلها والجيش كله ، وإن كل فرد قد يصبح شهيداً . . ثم من يضمن نتيجة هذه الحرب ؟ . . لا أحد يستطيع أن يضمن نتيجة أية حرب . . إلا الله وحده . . » .

وقد استمر السادات يزداد اقتناعاً بضرورة الحرب نظراً للظروف والأحداث والمراوغات السياسية ، وكلها عوامل زادته إصراراً على إعلان نيته فى اختيار المعركة . قالها السادات بملء فمه للمصريين والعرب وللرأى العام العالمى . المعركة ولا بديل سوى المعركة . بالرغم من أنه كان يرى أن هناك احتمالاً فعليًّا بأن تتدخل الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل – وهو ما حدث بالفعل فيما بعد – ومن ناحية أخرى فقد جاءت مخاطرة اتخاذ قرار الحرب والرئيس السادات يتوخى الحذر تجاه السوفييت . ولا يريد أن يقطع معهم شعرة معاوية ، بدليل أنه عندما سئل فى إحدى المناسبات عما إذا كانت مصر تستطيع استئناف المعارك برغم معارضة السوفييت ، أجاب : إننا وحدنا الذين نتخذ قرار المعركة فلماذا

نقحم السوفييت ، وعندما نتخذ القرار فسوف نقبل كل النتائج التى تترتب عليه .

وقد جاء هذا المفهوم مختلفاً تماماً لدى كل من الغرب وإسرائيل على السواء ، فحينما قام السوفيت بترحيل عائلات الخبراء من مصر كان تفسير المراقبين الغربيين والإسرائيليين لهذا العمل أنه إشارة من السوفييت للعرب بأنهم لا يودون استمرار التوسط فى مشكلة الشرق الأوسط . وأنهم كذلك لا يوافقون على أية مغامرة هجومية غير مضمونة العواقب .

لكن الرئيس السادات كان عاقداً العزم على المضى فى طريق المعركة إلى آخر الشوط . وقد أعلن ذلك صراحة قبل شهور قليلة من القتال قائلاً لمجلس الشعب المصرى : «لا أمريكا ولا روسيا . . أنتم وحركتكم . . هذه خلاصة الموقف فى الاتصالات الدبلوماسية . ومن أجل هذا وصلت إلى قرار . أن أتحمل قدرى بنفسى فى هذه المرحلة ، كما يتحمل كل إنسان منكم ، هذه لحظات فى التاريخ لابد أن يتقدم فيها الإنسان ويحمل قدره . ويفعل الله ما يريد» .

وقبل مرور بضعة أيام على المعركة . وبمناسبة الذكرى الثالثة لوفاة الرئيس الراحل عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ . ألقى السادات خطاباً سياسيًّا للشعب المصرى قال فى آخر دقيقة منه «هناك موضوع ربما تلاحظون أننى لم أتكلم فيه . وهو موضوع المعركة ، ولقد قصدت ذلك . . لقد شبعنا كلاماً . . أريد أن أقول شيئاً واحداً . . إن تحرير الأرض هو المهمة الأولى والرئيسية أمامنا ، وبعون الله سوف نحققها وسوف نصل إليها» وكان أمل السادات ينحصر فى تحطيم الأسطورة الضخمة التى بنتها إسرائيل حول تفوقها الساحق وذراعها الطويلة . ويعبر عن ذلك بقوله : «. . سوف نحطم جدار الصمت والخوف والرعب

والانهزامية . . لقد عقدنا العزم على اجتياح كل ما يعوق مسيرتنا وليكن ما يكون . لقد كانت حساباتى تدل على أن المكسب لنا مهما كانت النتيجة » .

وعموماً فقد كان هدف المعركة هو أن يثبت العرب للرأى العام العالمى أن التفوق العسكرى الإسرائيلى ودعوى الأمن القائم على السلاح . . لا يمكن أن تقرر مصائر الأمور فى المنطقة . أو تجبر العرب على التسليم بالهزيمة . وفى كلمات محددة كان هدف السادات هو تدمير نظرية الأمن الإسرائيلية وإيقاع أكبر خسائر ممكنة بالقوات الإسرائيلية . وقد سبق المعركة تخطيط دعائى رائع ، حتى إن هنرى كيسنجر قد خدع هو الآخر فى حقيقة النوايا القتالية العربية . وقال فى إحدى المناسبات :

« كنا نأخذ كل الأنباء والمعلومات التى تصدر عن وسائل الإعلام المصرية كافة . ونغذى بها الحاسب الإلكترونى . لنصل إلى إجابات محددة عن نواياكم بصدد الحرب . وفى كل مرة نفعل ذلك كان الحاسب يجيب بالنفى ، لقد نجح الإعلام المصرى فى تضليلنا تماماً . . وعلى الصعيد الإسرائيلى فقد بنى الإسرائيليون خطتهم على الجبهة المعنوية العربية على أسس ومعتقدات توصلوا إليها عن طريق تحليل نتائج الحروب العربية الإسرائيلية السابقة . ومن ثم فقد ظهرت . سياستها المتعلقة بالجبهة المعنوية خلال الحرب صورة طبق الأصل من مخطط قديم لا يتفق وحقائق العرب التاريخية . ولا يأخذ فى اعتباره نوعية المقاتل المصرى الجديد وفلاحى وادى النيل الذين غدوا صائدى دبابات . وقد جاء رد الفعل الإسرائيلى عنيفاً سواء على القيادات السياسية أو العسكرية أو على الرأى العام الإسرائيلى ذاته . لأن الإنسان الإسرائيلى لم يُعدَّ مسبقا لتلقى الصدمة . ولم يعبأ نفسيًّا كما عبئ فى الحروب السابقة . وكانت التحركات المصرية على طول

قناة السويس واضحة وضوح الشمس . إلا أن الإسرائيليين لم يأخذوها مأخذ الجد . لاعتقادهم أن المصريين غير مستعدين للاندفاع فى مغامرة عسكرية .

وهكذا عندما اندلعت الحرب جاءت الأنباء مغايرة تماماً للتوقعات. وظهر الشرخ داخل المجتمع الإسرائيلى . فكان شرخاً خطيرا لأنه أصاب اقتناعات وجدانية عميقة داخل إسرائيل . لأنه بالرغم من المانع المائى والتحصينات الإسرائيلية المنيعة والجبهة الطويلة الشاسعة والقوات المصرية الضخمة المهاجمة على مدى ١٨٠ كيلو متراً من بورسعيد إلى السويس . فإن الخسائر المصرية فى القوات لم تكن تذكر فى الوقت الذى خسرت فيه إسرائيل ٤٠٠ دبابة . فضلاً عن أفضل طياريها المدربين الذين وقعوا بطائراتهم فى المصيدة التى نصبها الطيارون المصريون بالاشتراك مع قوات الدفاع الجوى .

ولأن الهزيمة يتيمة وللنصر ألف أب . .فقد كان طبيعيًّا أن يبحث الإسرائيليون عن أب لهزيمتهم . فلا التدابير الأمنية أمنتهم ولاخط بارليف الأسطورى حماهم . وتردت إسرائيل فى القاع ، وتوالت الانتصارات المصرية يوماً بعد يوم . ومس الزلزال جميع جوانب البناء الاجتماعى فى إسرائيل حين رأى الإسرائيليون جيشهم وهو يواجه سوء الإدارة ونقص التخطيط والعجز عن المواجهة وانتقد الباحثون الإسرائيليون المتخصصون فى الشئون العربية — مثل هاركابى وتامير ويعقوب تلمور — انتقدوا أنفسهم لما قدموه قبل ذلك من صورة سلبية عن المصريين .

هكذا جاءت نتيجة قرار السادات بدخول الحرب عام ١٩٧٣ . لقد كان قراراً صائباً بالرغم من أنه لم يكن بالضرورة عقلانيًّا . ذلك أن مفهوم عقلانية القرار لرجل الدولة المسئول يبقى نسبيًّا ، كما أن خير قرار ليس بالضرورة ذاك

الذى سَعى إلى جعله صواباً . إن المهم هو النجاح ، وقد كان موقف السادات عقلانيًّا لأنه قام على أساس وضع كل الأوراق فى اللعبة بقدر الإمكان ، لكن ذلك كله قد توقف أيضاً عند لحظة اتخاذ القرار . . على معرفة الرئيس السادات التى نوجزها فى الكلمات الآتية : « لقد كان جريئاً . . وغامر . . وجرب حظه ونجح » .

وعلى صعيد العلاقات السوفيتية العربية نجد أن السوفييت قد نظروا بحسد إلى النجاح الذى حققه الأمريكيون فى الشرق الأوسط عام ١٩٧٤ بإنجاز الفصل بين القوات الإسرائيلية والمصرية والسورية . والدليل على انزعاج السوفييت وإحساسهم بالقلق والاستياء تجاه مركزهم فى المنطقة – الدليل على ذلك هو إرسالهم لوزير الخارجية السوفييتى أندريه جروميكو عدة مرات إلى سوريا خلال الفترات الدقيقة من مباحثات الفصل بغرض إحداث مايمكن من أضرار بهذه المباحثات .

وأشار المراقبون السياسيون إلى ماقام به جروميكو آنئذ من تحريضه للمتشددين من القادة الفلسطينيين لاستغلال اللاجئين الفلسطينيين الذين يعانون من اليأس والبؤس والتشريد وأخذ الساخطون فى موسكو يستغلون هذا الموقف لإثارة الشعور الوطنى لدى الشعب الفلسطينى ، ووضع السوفييت كل جهودهم – والتى استمرت عشرين عاماً قبل ذلك – من أجل مـد فترة الصراع والنزاع بين العرب وإسرائيل وكان هدف السوفييت بالطبع هو المحافظة على نفوذهم ومركز قوتهم من أن ينحسر أو يتقوض .

وعلى الصعيد الإسرائيلى فليس أدل مما ذكرته أجهزة الإعلام الأمريكية – وكان هذا شيئاً جديداً تماماً عليها – من وصف الأزمة السياسية والخلافات الحزبية داخل إسرائيل بعد الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة ، فى حين استرسلت

هذه الأجهزة فى وصف الصورة المشرقة للعالم العربى بعد الحرب ، فالمعركة كانت لها قيادة واحدة تتمثل فى شخص الفريق أول المرحوم أحمد إسماعيل وهذه هى الحرب الأولى للعرب التى يكون فيها للمعركة قيادة واحدة وفعالة ، فضلا عن أن دراسات موضوعية وعلمية حددت اختيار أنسب شهور السنة ، وأنسب أيام الشهر ، وأنسب ساعة لبدء الهجوم ، وتدخلت فيها عوامل كثيرة ، فقد اختير شهر أكتوبر لأنه شهر الانتخابات الإسرائيلية ، ولوقوع الأعياد اليهودية : عيد الغفران وعيد المظال ، وعيد التوراة . كذلك فإن التخطيط والإعداد للمعركة جرى فى أقصى حدود الكتمان والسرية والجدية من غير طنطنة لأجهزة الإعلام المصرية ، وإنها أول عملية عسكرية بدأت وتمت بنجاح باهر دون أن يدرى بها الإسرائيليون ، واختراق خط بارليف وتدميره والاستيلاء عليه ، قد تم فى وقت قصير ضرب الرقم القياسى فى تاريخ الحرب الخاطفة . وفى هذه الحرب أيضاً خاضت القوات المصرية حرباً خاطفة أنزلت الهلع والارتباك فى الجيش الإسرائيلى ، ثم إنها امتلكت ناصية الحرب الليلية ، وإن الليل لم يعد تحت تصرف الإسرائيليين فقط بل إن المصريين أيضاً استعدوا للقتال الليلى ، وهكذا سيطر العرب على الحرب ليلا ونهاراً .

ومن هذه الإنجازات أيضاً التفوق العربى البارز فى الحرب الجوية بكل فنونها وبراعتها ، ففى حرب الأيام الستة تمكن السلاح الجوى الإسرائيلى من تدمير القوة الجوية المصرية فى أقل من ساعة ، وكانت إسرائيل ومعها الدوائر العسكرية الغربية على ثقة كبيرة بأن سلاحها الجوى قادر على إنزال الهزيمة بالدول العربية كلها وبالسلاح الجوى وحده ، وفى حرب أكتوبر تصدى السلاح الجوى المصرى وأنزل بالإسرائيليين خسائر فادحة . هناك أيضاً الميدان

التكنولوجى حيث أظهر المقاتل العربى تفوقاً بارزاً فى تكنولوجيا الحرب ، وكانت إسرائيل تدعى أن العرب لن يستطيعوا اللحاق بها قبل القرن ٢١ ، ولكن حرب أكتوبر أثبتت أن ثقة إسرائيل فى تفوقها التكنولوجى قد سقطت .

ويأتى على قمة إنجازات أكتوبر انهيار كثير من الأساطير ، من أمثال إسرائيل التى لاتقهر ، والعرب الضعفاء على الدوام ، والجندى الإسرائيلى الشجاع المقاتل المعجزة فى مواجهة الجندى العربى المهلهل الذى لايحسن سوى الكر والفر .. لقد سقطت هذه الأساطير كلها ، فإسرائيل قهرت ، ولم يعد المصريون هم أولئك الذين يجيدون الحماس بدون قتال ، لقد قاتلوا وأجادوا .

وحتى الهالة التى وضعتها المخابرات الإسرائيلية حول نفسها قد سقطت أساطيرها التى كانت تدعى أنها لاتخفى عليها خافية ، وأنها تسمع دبيب النملة فى الليل ، وكل ما لأجهزة المخابرات الإسرائيلية من شهرة عالمية جاءت حرب أكتوبر لتهوى بها على الأرض ، ثم الخسائر الجسيمة التى نزلت بإسرائيل ولأول مرة فى حروبها مع العرب ، لقد كانت خسائر جسيمة فى العتاد والرجال والأموال .. لقد ذاقت إسرائيل طعم الحرب حقًّا ، وعرفت فجائع الضحايا .. التى بلغت عشرة آلاف قتيل وجريح ، وألف دبابة ، ومائتى طائرة ..

لقد أصاب الإسرائيليين هلع أكبر - على حد تعبير أحد المفكرين الفلسطينيين - فراحوا - أى الإسرائيليون - يصفونها بأنها الإعصار والزلزال والكابوس والمفاجأة والصدمة .. قالها مناحم بيجين نفسه فيما بعد «إن إسرائيل فوجئت فى يوم الغفران .. وكان جيشنا غير معبأ ويقف بعيداً عن الجبهات .. » واتهم بيجين حكومة إسرائيل السابقة بأنها جرت الدولة إلى وضع من الخداع الذاتى ، وفقدان الإحساس بالواقع انتهى بصدمة يوم الغفران » . وفى حين

حثت الصحافة الأمريكية حكومتها على أن تقدم معونات اقتصادية لمصر بعد أن تم الفصل بين القوات فيما سمى بفترة التقاط للأنفاس ، بالنسبة لما حققه وزير الخارجية هنرى كسينجر من نجاح دبلوماسى . وبالرغم من إطلاق الصحافة الأمريكية هذه الدعوة لحكومتها فإنها قد غمرتها حقائق الهلع الذى أصاب إسرائيل فمجلة تايم الأمريكية تركز فى تحليلها على « الأزمة التى أضحت ثورة » وتنقل عبارات جولدا مائير : « ماحدث فيه الكفاية .. لقد وصلت إلى نهاية الطريق . . إنه لأمر فوق طاقتى أن أستمر فى تحمل العبء » . وبهذه الكلمات المؤثرة أنهت جولدا مائير نصف قرن من عملها بالسياسة ، وكان الرأى العام الإسرائيلى لايصدق أن رئيسة الوزراء الصلبة ذات الإرادة القوية راحلة عن المنصب حقًا .

لقد ساد الشارع الإسرائيلى شعور بالألم ، ولم يحدث من قبل أن تركت حرب مثل هذا الشعور بالحسرة والمرارة ، وتجلى ذلك من ردود فعل تقرير أجرانات الذى أثبت أن القيادة المدنية (مائير وديان) بالإضافة إلى القيادة العسكرية وعلى رأسها اليعازر مسئولة عن حالة عدم الاستعداد للحرب .

ولم يتوقف « ديان » عن محاولة تبرئة نفسه والدفاع عن تدابيره الأمنية والخطط التى جابه بها الحشود العربية ، وإلقاء الاتهامات على القادة المنفذين قائلا : « صدر أمر الاستعداد قبل يوم الغفران .. قبله بكثير.. هذه مشكلة تنفيذ وليست مشكلة تقييم » . غير أنه عندما سئل عن تعبئة الاحتياط قال : « تم تجنيد الاحتياط فى اللحظة التى حصل فيها المسئولون على معلومات بأن الحرب ستنشب ، وليس قبل ذلك ، لأنهم لم يفترضوا أن الحرب ستنشب » وواضح مدى التناقض بين أقوال ديان هذه وبعضها بعضاً وأيضاً بين هذه الأقوال

وماذكرته جولدا مائير فى كتابها « حياتى » بأنها ستظل نادمة مدى حياتها لأنها لم تنصت إلى تحذيرات قلبها حينئذ ، وتصدر أمراً بالتعبئة العامة .

أما الكاتب الإسرائيلى الذائع الصيت زئيف شيف فهو من الاتجاه الآخر ، الذى ألقى عبء المسئولية على المخابرات الإسرائيلية ، التى عجزت عن فهم التحولات الجذرية داخل المعسكر العربى عشية حرب يوم الغفران ، وكان ذلك ناجماً عن استنتاج خاطئ بأن المصريين « مازالوا فى الوضع الذى تركناهم عليه فى نهاية حرب الاستنزاف » أى غير مستعدين لحرب شاملة خوفاً من أن يهزمهم سلاح الجو الإسرائيلى » وكان زئيف شيف قد اتهم المخابرات الإسرائيلية قائلا : « إن الخطأ لايعود إلى عشية الحرب بل إن الخطأ بدأ يوم انتهت حرب الأيام الستة . إن المفاجآت كانت فى علاقات القوى ومستوى جندى المشاة المصرى والفعالية المدمرة لهذا الجندى لاتحدث فجأة بين رأس السنة ويوم الغفران ، بل مثل هذه المفاجأة يمكن أن تحدث فقط نتيجة خطأ استمر زمناً طويلا » .

كذلك هاجم رئيس الأركان آنئذ « دافيد إليعازر » المخابرات الإسرائيلية قائلا : « فى هذه المرة كان الإنذار قصيراً جداً أو غير كاف » وحينما دخل حاييم بارليف طرفاً فى الجدل راح يقول : « إن نجاح العدو – يقصد العرب – سواء فى سيناء أو فى هضبة الجولان لم ينبع على كل حال من انعدام المعلومات أو من وجود مفهوم غير صحيح بالنسبة للعمليات لدى الجيش الإسرائيلى أو من خطأ فى تقدير وتقييم نسبة القوى أو من استخدام أسلحة غير معروفة أو من قدرات غير متوقعة لجيوش مصر وسوريا ، إنما ينبع من حقيقة كون نظام الدفاع للجيش الإسرائيلى لم يكن فى الساعة المصيرية لبداية الحرب بكامل الاستعداد الذى يتطلبه خطر حرب شاملة » .

وعلى أية حال فمهما كانت فداحة خطأ القيادة العسكرية الإسرائيلية ووزير الدفاع والمخابرات الإسرائيلية فإنه من المستحيل فهم وقوع خطأ كبير بهذا الحجم دون البحث عن مسئولية الحكومة ، بل النظام بكل مؤسساته ، وبالتالى المناخ السياسى الذى أشاعته الحكومة داخل إسرائيل ، وفى هذا المجال يقول «أهارون كوهين» أحد المستشرقين البارزين : «إن أى تقصير فى المجال العسكرى يعود أساساً إلى خطأ فى النظرة السياسية ، فمنذ أكثر من ستة أعوام كانت السياسة الإسرائيلية محصنة وراء سور من انعدام المبادرة السياسية ، وغارقة فى منطق القرار بعدم اتخاذ قرار ، والمناورة أساساً لكسب الوقت ، وقد كانت إحدى المسلمات أن الوقت يعمل لمصلحتنا ، وقوبلت مبادرات الآخرين مثل الدكتور يارنج ورؤساء أفريقيا وغيرهم برد حاسم : «العرب يعرفون عنواننا» وفى هذا أيضاً كتب «آمنون روبنشتاين» عميد كلية الحقوق بجامعة تل أبيب : «إن وزير الدفاع يتحمل مسئولية كبيرة عن أكبر فشل عرفته إسرائيل فى تاريخها ، إن كلمة تقصير لاتلخص فشله – والكلمة الملائمة أكثر هى إهمال كبير ، فلقد أهمل المهمة التى كلف بها . تحمل مسئولية أمن إسرائيل ، لقد أهمل الجيش ولم يهتم بمشكلاته الحيوية . إن كل تنبؤاته المتكررة لم تنفعه وقت الضيق ، وعلى العكس فقد أخطأ بصورة مستمرة وأدى خطؤه الأساسى – أعواماً طويلة من الهدوء فى الأوضاع العامة – إلى تنويم الجيش والدولة برمتها . إنه لم يعد نفسه ولم يجهز الجيش للحرب . أما الثمن الذى دفعناه مقابل هذا الخطأ فهو أكبر من أن نستطيع وصفه» .

أما أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل آنئذ فقد راح هو الآخر يحمل ديان مسئولية فشل إسرائيل فى سيناء «وإننا كنا نعيش فى وهم الدولة القوية منذ عام ١٩٦٧» .

وهكذا وضحت الصورة السلبية لزعماء إسرائيل أمام الرأى العام العالمى فى حين جاءت الصورة العربية مشرقة ، وتحدثت أجهزة الإعلام العالمية عن العصور الزاهرة للحضارة العربية وتشجيعها للتعليم والبحث فى حين كانت أوربا تخوض العصور المظلمة ، وإنه بحق للمواطنين العرب أن يفخروا بعروبتهم بعكس الحال قبل الحرب وفى ظل هزيمة ١٩٦٧ ، بل إن مجلة نيوزويك قد تحدثت أيضا عن الإسلام كنظام للحياة وليس مجرد شعائر ، وعن تأثيره فى تشكيل الثقافة العربية ومايتميز به من المساواة بين المسلمين ، سواء كانوا شيوخ بترول أو فلاحين كادحين (على حد تعبير المجلة) ، بل إن المجلة أيضاً قد ذهبت إلى أبعد من ذلك حينما أبرزت سوء الفهم من جانب الغرب للحضارة العربية والانطباع الذى استقر فى العقلية الغربية عن العربى : فمحى اللون ذى لحية . لديه فائض من المال ، لكنه قذر ، يحمل سيفاً ويركب جملا ، وتساءلت المجلة عن مصدر هذا الانطباع فقالت إنه لايعرف متى أرسيت جذور هذه الصورة ؟ وأوضحت المجلة أن جيوش المسلمين فى العصور المظلمة هى التى نقلت إلى أوربا العلوم والفلسفة التى يعتز بها الغربيون الآن .

وعلى صعيد الشعب الفلسطينى ومنظماته وأنشطة المقاومة فقد أوضحت التعليقات الخوف من أن يتخلى الرئيس المصرى عنهم ويتركهم فى العراء مرة أخرى ، ولكن السادات وعد بأنه لن يفعل ذلك أبداً ، وأن خط مصر السياسى الثابت – كما أثبتته التطورات اللاحقة أيضاً – هو أنه لايمكن الوصول إلى السلام دون حل المشكلة الفلسطينية .

وبالرغم من ذلك فإن القادة الفلسطينيين لم يجدوا قط الطريقة لتوحيد أنفسهم ، واستمروا ينضوون تحت حماية بعض القيادات العربية التى استغلتهم

واستقطبتهم ، ونتج عن ذلك عدم تبلور الموقف الفلسطيني الذى اتسم بأسلوب الرفض لمجرد الرفض من جانب بعض المنظمات الفلسطينية ، حتى المثقفون الفلسطينيون لم يشاركوا فعليًا وجديًا فى إيجاد الحلول المناسبة ، مع أن الشعب الفلسطيني قد أصبح من أكثر الشعوب العربية تعليماً فى مجملهم إذ يحمل ما يقرب من ٧٥ ألفاً من الفلسطينيين شهادات جامعية ، كما أنهم يكونون نخبة من رجال الأعمال والمهنيين فى العالم العربى ، ولهم تأثيرهم العلمى ونشاطهم السياسى فى اليمن والسعودية وإمارات الخليج ، بالإضافة إلى عديد من المفكرين الفلسطينيين ، ومنهم الحاصلون على درجة الدكتوراه ، ولهم ثقلهم العلمى فى العالم العربى وأوربا والولايات المتحدة .

وربما يمكن تلمس الأعذار لهذا الشعب الشقيق والعريق ، حيث اتجه بأنظاره ووضع أوراقه كافة ومصيره أيضاً فى أيدى القادة العرب منذ عام ١٩٤٥ عن طريق منظمته ، أى الجامعة العربية ، فى حين أن الإسرائيليين قد اتجهوا صوب الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الجواد الرابح منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، أما المنطق الفلسطيني – وهم محقون فى ذلك بالطبع – فهو «نحن جزء من العالم العربى . وأننا شىء مميز وأننا نريد الاحتفاظ بوطنيتنا» كذلك فإن الشعب الفلسطيني – وهذا هو الأهم – قد عاش على الأرض العربية آلاف السنين ، فهم عرب .. وحتى ارتباطهم بفلسطين يسبق عروبتهم .. وأيضاً فإن التصاقهم بأرض فلسطين ظل مستمراً حتى تم إنشاء دولة إسرائيل ، وبالرغم من ذلك فإن الشعب الفلسطيني لم يفقد قط إحساسه بالهوية المشتركة بتأثير التشتيت أو ظروف المخيمات .. حتى الفلسطينيين فى الدول العربية – برغم ماتعرضوا له من إبادة فى الأردن ولبنان – لايزالون يعتبرون أنفسهم فى التحليل

النهائى . . لاجئين . . فمن بين الفلسطينيين البالغ عددهم ٣,٢ ملايين نسمة ، يعيش ١,٥ مليون فلسطينى فى الأردن - ويشمل ذلك الضفة الغربية - وهناك ٤٠٠ ألف فلسطينى فى إسرائيل و ٣٥٠ ألف فلسطينى فى قطاع غزة ، و ٣٠٠ ألف فى لبنان ، و ١٦٠ ألفاً فى سوريا ، و ٥٠ ألفاً فى العراق . وما يقرب من مائة ألف فى الكويت ، وهناك أعداد كبيرة فى دول الخليج والسعودية وليبيا ، ويعيش حوالى ٦٠٠ ألف فى معسكرات اللاجئين ، بالإضافة إلى عدة آلاف من الفدائيين .

وبالرغم من هذه الحقائق المؤلمة فقد استمرت القيادات الفلسطينية منقسمة على نفسها إزاء الطرق والوسائل والأهداف قصيرة الأجل ، حتى إن عضواً فى منظمة فدائية يقول : «إننا لانتفق على الأرض التى يجب أن نستحوذ عليها ، أو على الوسائل التى يجب أن نستعملها للحصول على هذه الأرض» .

والأمر الذى يجب ألا يغيب عن البال أيضاً أنه برغم انعدام الوحدة الظاهرى فإن الشعب الفلسطينى يشكل - بدون شك - قوة يجب أخذها فى الاعتبار فى أى جهود للسلام فى المنطقة ، وقد أدركت مصر ذلك تماماً فى سعيها المضنى من أجل إحلال سلام عادل ودائم فى منطقة الشرق الأوسط ، بدءاً بحرب أكتوبر ، ومروراً بمبادرة السادات التاريخية وزيارته للقدس ، وانتهاء باتفاقيات كامب ديفيد والجهود اللاحقة ، حيث ركزت مصر على ضرورة إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية ، وهو أيضاً ماجعل المحادثات بين مصر وإسرائيل تتعثر مرة بعد أخرى .

لقد أدركت مصر أن هناك مخرجاً واحداً شريفاً للمشكلة .. لابد من إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية حتى لا يستغل الشعب الفلسطينى الشقيق مرة

أخرى ويقع فى فوضى تريدها موسكو ومن توجههم فى بعض الدول العربية .

وبذل السوفييت مابذلوه لتأكيد نفوذهم على مصر وسوريا ، وإن العرب الذين سقطوا فى شباك العنكبوت السوفييتى بسبب أخطاء العالم الغربى . أخذوا يستيقظون ، وإن مصر خرجت من دائرة هذا النفوذ وفقدها السوفييت إلى الأبد . وإذا كان السوفييت يطورون منذ سنوات علاقاتهم بليبيا ويحتفظون بعلاقات قوية مع دمشق . فإن هذا كله لن يغطى خسارتهم بفقدان مصر . ولم تتحقق بالتالى توقعات البعض التى كانت تميل إلى أن مرحلة مابعد حرب أكتوبر سوف تشهد عودة ناجحة للسوفييت إلى مواقعهم التى فقدوها فى الشرق الأوسط . وقد استندت هذه التوقعات – التى ثبت عدم صحتها فيما بعد – إلى أنه بالرغم من أن مصر وسوريا قد اتخذتا قرار الحرب ونفذتاه فى غيبة النصيحة السوفييتية . بل تتعارض هذه الحرب أساساً مع الرأى السوفييتى – فإن الأداء العسكرى العربى فى المعركة قد غير كثيراً من الإدراك السوفييتى لصورة العرب ، فبموجب هذا الأداء قوض العرب الحجة السوفييتية فى عدم قدرة العرب على تحريك الموقف عسكريًا . ومن ثم كان متوقعاً أن يعدل السوفييت عن سياستهم الخاصة بتسليح مصر . الأمر الذى يخفف من حدة التناقض السوفييتى المصرى . خاصة أن الحرب جاءت نتيجتها تدعيماً لسياسة التسوية السلبية التى كان السوفييت يتوقون إليها . مع أن العرب كانوا قد اعترضوا على هذه السياسة لأنها تنفذ على أساس الواقع الناجم عن هزيمتهم فى عام ١٩٦٧ .

وعلى صعيد الدول العربية البترولية فإن السعودية والكويت ودولا عربية أخرى فضلت اتخاذ إستراتيجية مبنية على ثقة جزئية فى موقف الولايات المتحدة الأمريكية . فى حين أن الجزائر رفضت اعتماد مثل هذه الإستراتيجية ،

وعارضت كل من العراق وليبيا . وبدا من الواضح أن الفشل فى الحصول على قرار ما بشأن القضية الفلسطينية سيضعف من موقف القيادة الرئيسية ، ويقوى موقف المعارضين للتقارب مع الولايات المتحدة .

وقد عارضت مصر ذلك بمعنى أنها لم توافق على تجاهل الأمريكيين ، بالرغم من اعتراف مصر بأن تاريخ أمريكا فى المنطقة يحكم عليها وليس لها ، لكن الدبلوماسية المصرية رأت أن ذلك لايعنى أن يقف العرب فى عداوة مع الولايات المتحدة ، أو يرفضوا التفاهم معها ، خاصة أن أهم النتائج التى ترتبت على حرب أكتوبر ١٩٧٣ هى تحسن العلاقات مع الولايات المتحدة ، بما يستتبع ذلك من آثار ليس على القرار المحتمل بالنسبة للصراع مع إسرائيل فحسب – وهو ماتحقق بالفعل بعد ذلك بسنوات من مشاركة الأمريكيين فعلياً وإيجابياً فى جهود السلام – بل على المأزق الذى تعرض له إنتاج البترول وما يتعلق بتحديد أسعاره أيضاً خاصة أن الفترة اللاحقة على حرب أكتوبر قد شهدت مناخاً دبلوماسياً عاصفاً فى النصف الأول من عام ١٩٧٤ بين الدول الغربية المستوردة للبترول . فبريطانيا عارضت ألمانيا الغربية واتهمتها بأنها استغلت الموقف الناشئ عن حرب أكتوبر لكسب أرباح «متفجرة» والحكومة الألمانية ردت برفع قضية على شركة البترول البريطانية B.L. التى تسهم الحكومة البريطانية فى رأسمالها بمقدار النصف . بتهمة مخالفتها لقوانين منع الاحتكار GARTAL ومع ذلك فإن بريطانيا وألمانيا كانتا متفقتين على حصر الحوار العربى الأوربى داخل النطاق الاقتصادى . دون تغليفه بالإطار السياسى ، وهذا الاتجاه عارضته فرنسا .

وفى النهاية نجح العنصر الموالى للأطلسية والأمريكية داخل المجموعة

الأوربية ، حيث تم الاتفاق على أن تترك المجموعة الأوربية الزعامة السياسية فى الشرق الأوسط لأمريكا . مقابل السماح لدول المجموعة بالتحرك الاقتصادى ، ومرة أخرى عاد مفتاح الحل والربط فى يد الدول العربية البترولية التى وقفت موقفاً متصلباً بشأن ضرورة تحييد أوربا . وهكذا أسفر استخدام سلاح البترول فى حرب ١٩٧٣ عن أضخم الأحداث التى شهدها تاريخ العرب الحديث ، بل أكثرها تأثيراً على دول العالم قاطبة . ويستدل على ذلك من التقرير السنوى للمعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية لعام ١٩٧٣ عن فعالية سلاح البترول العربى فى حرب أكتوبر . وإن شهر هذا السلاح من جانب العرب قد أثبت أن القوة السياسية لاتنبع من فوهة المدفع فحسب . بل إن هذه القوة تنبع أيضاً من برميل النفط الخام .

فلأول مرة تتمكن مجموعة من الدول غير الصناعية أن تملك فى قبضتها سلاحاً قادراً على إرغام مجموعة من الدول الغنية والصناعية على أن تجثوا على ركبتيها . نظراً لأهمية مصدر الطاقة لوسائل إنتاج هذه الدول الصناعية . فالبترول أعطى العالم العربى أهميته الحاسمة . وكان بمثابة عامل حيوى فى فعالية السياسة الخارجية للدول العربية عقب أكتوبر حيث اعتبر البترول عاملا من عوامل ارتفاع مكانة الدول العربية ، وراجت دبلوماسية البترول بين صانعى السياسة فى الدول الصناعية .

وكانت مصر أول من أخذ زمام المبادأة لإيقاظ هذا العملاق السياسى النائم فى جوف الأرض مايقرب من أربعين مليوناً من السنين ، والذى لم ير فيه العرب سلاحاً جباراً إلا منذ أربعين عاماً ، وحتى طوال هذه الفترة القصيرة فقد تغافل العرب عن سلاح البترول . فبقى هذا السلاح فى غمده إلا من تصريحات جوفاء

أو مقررات سرية للحكام العرب . وكل هذه الإجراءات كانت لاقيمة لها ولا اعتبار ، وكل ما اقتصر عليه القرار العربى فى أربعين عاماً هو من الناحية الشكلية فقط .. أى « عدم إعطاء امتيازات جديدة للشركات الأجنبية »

فى أحداث ١٩٤٨ و١٩٥٦ تعالت صيحات الجماهير العربية مطالبة باستخدام سلاح البترول . وأصدر حكام العرب – كعادتهم – تصريحات ساخنة كادت تحرق البترول ، لكن الساسة آنئذ مضوا فى سياستهم معولين على أن هذه التصريحات العربية «كلام فارغ » وإنصافاً للحق فقد توقف ضخ البترول عن الغرب عام ١٩٦٧ استجابة لنداءات الرأى العام العربى ، وانقطع البترول العربى عن بريطانيا وأمريكا بالفعل . وعقب أحداث كارثة ١٩٦٧ لم يملك القادة العرب آنئذ الشجاعة أو وضوح الرؤية ليشهروا سلاح البترول ، ودارت المساومات وراء دهاليز مؤتمر الخرطوم سنة ١٩٦٧ بين دول البترول والدول غير البترولية . وانتهى الأمر إلى اتفاق على « استئناف ضخ البترول العربى » .

وبالرغم من ذلك فإن المفكرين العرب ، وخاصة الفلسطينيين منهم ، لم ينقطعوا عن مناشدة الدول البترولية أن تستخدم سلاحها ، غير أن الدول العربية البترولية لم تعبأ بهذه النداءات ، ليس هذا فحسب .. بل إن المسئولين البتروليين ملئوا أجهزة الإعلام العربية طنطنة بأنه من الخطأ استخدام البترول كسلاح سياسى ، حتى جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ واقترحت مصر دعوة منظمة الأوبك العربية لاجتماع عاجل . وبدا أن هناك اتجاهين : اتجاه ليبى عراقى يدعو إلى حظر النفط عن أمريكا وتأميم الشركات النفطية وسحب الأرصدة العربية من البنوك الأجنبية . والاتجاه الآخر الذى كان يقول باتباع سياسة خفض الإنتاج ، واستقر الرأى فى النهاية على القرار الآتى « بما أن الهدف المباشر للمعركة

التى تدور رحاها حاليًا هو تحرير الأرض العربية المحتلة ، واستعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وفقاً لقرارات الأمم المتحدة . وبما أن أمريكا هى المصدر الرئيسى لقوة إسرائيل . لذلك فإن المجتمعين يقررون أن يتناقص الإنتاج بنسبة شهرية متكررة لاتقل عن خمسة فى المائة ، حتى تضغط المجموعة الدولية على إسرائيل للتخلى عن أراضينا المحتلة . وأن ينال أمريكا أكبر تخفيض . وأن يؤدى ذلك إلى قطع إمدادات أمريكا بالبترول من كل دولة عربية ، وصدر هذا القرار بالإجماع باستثناء العراق الذى انسحب من الاجتماع ولم يوقع البيان .

وتعاقبت العواصم البترولية تعلن عن تنفيذها لهذا القرار.. قرار خفض الإنتاج ، وشعر المواطن العربى حقًّا أن سيف البترول قد استخدم هذه المرة . أما البتروليون العرب غير الرسميين فقد رأوا طبقاً لإحدى الدراسات أن «خفض الإنتاج يدخل فى إطار المصالح الذاتية للدول العربية المصدرة للنفط ، وأن هذه الدول قد بحثت هذا الإجراء عدة مرات ، وذلك بالنسبة إلى تدنى قيمة أرصدتها المكدسة فى البنوك الغربية لتدنى قيمة العملات الأجنبية وأنه خير للدول العربية أن يبقى بترولها فى باطن الأرض من أن يكون أرقاماً فى البنوك الأجنبية «وبالرغم من هذه المقولات فقد اجتمع وزراء البترول العرب مرات عديدة فى هذه الفترة ، وكان آخرها فى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ حيث قرر وزراء البترول العرب المجتمعون فى الكويت تخفيف إجراءات تخفيض الإنتاج بزيادة الإنتاج هذه المرة مع استمرار الحظر على الولايات المتحدة وهولندا ، وقد برر وزير البترول السعودى ذلك بقوله : إن نظرة الرأى العام الأمريكى إلى النزاع العربى الإسرائيلى قد تغيرت . وإن عدداً من أعضاء الكونجرس قد اتخذوا مواقف موضوعية تجاه النزاع العربى الإسرائيلى . وإن سلاح البترول إن لم

يستخدم بحنكة وبراعة فإنه يفقد أهميته وفاعليته ، وقد رحبت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية بالقرار العربى بزيادة الإنتاج . أما الاتحاد السوفيتى فجرياً على سياسته غير الواضحة والمتذبذبة ، فقد أعلن آنئذ عن عدم رغبته فى الانغماس فى المشكلة البترولية . وكل ماسعى إليه السوفييت منذ ذلك الحين هو خلق أدوات عربية تمثل الإرادة السوفيتية فى التغلغل فى المنطقة من خلال القوى المحلية بها ، لإثارة الاضطرابات فى العالم العربى واستمرار أورامه بدون علاج فورى.

وعلى صعيد جهود الملوك والرؤساء العرب آنئذ فإنه تجدر الإشارة إلى الجهود الإيجابية الفعالة للمغفور له المرحوم الملك فيصل الذى قام بدور مجيد فى هذه الحرب . فهو الذى أصر بحزم وحسم على استمرار قرار حظر البترول على الولايات المتحدة مالم يحدث تحول واضح فى موقف الولايات المتحدة من مشكلة الشرق الأوسط . وقد أعاد إليه هذا الدور لقباً محبباً « أمير المؤمنين » وجاءت دعوته هذه لتجذب عطف وتأييد العالم العربى والإسلامى ، ومن التصريحات المأثورة للملك فيصل آنئذ قوله لكيسنجر « إن على أمريكا ألا تنتظر شتاءً قاسياً واحداً ، إنما يمكن أن تنتظر وقف إمدادات البترول العربى حتى عام ١٩٨٠ » .

وعلى صعيد ردود فعل استخدام سلاح البترول تجاه أوربا آنئذ نجد أن بريطانيا أعلنت برنامجا للتقشف قريباً من برنامج الحرب . وكتبت موسوعة « جينز » تقول : إن احتمال حدوث مجاعة عالمية فى البترول يمكن أن يغير وجه الحرب الحديثة ، لأنه سيحرم قوات العالم من نحو ٩٠٪ من قدراتها على الحركة ، وقالت الموسوعة أيضاً إن نقص البترول سيترتب عليه الحد من استخدام الدبابات والطائرات والوسائل البحرية مما قد يؤدى إلى إعادة تقييم

الحرب الكيميائية والبيولوجية ، وأضافت الموسوعة قائلة : إن حدوث مجاعة عالمية فى البترول يمكن أن يؤدى إلى مواجهة بين القوى العسكرية الكبرى فى منافستها للسيطرة على الإمدادات من الدول المنتجة للبترول ، وفى ألمانيا تعطل العمل فى عدد من أكبر مصانعها ، وفى الدانمارك أعلن جيش دفاعها إلغاء المناورات العسكرية التى كانت مقررة فى النصف الثانى من شهر ديسمبر ١٩٧٣ ، وفى فرنسا أعلنت شركة سيتروين إغلاق مصانعها لمدة أسبوعين وأمضى مايقرب من أربعين ألف عامل هذه الفترة فى منازلهم بلا عمل . وعموماً فقد أثرت القرارات البترولية الخاصة بالخفض تأثيراً بالغ الخطورة على مناطق الاستهلاك الرئيسية لهذه السلعة الإستراتيجية فى الولايات المتحدة وهولندا وأوربا الغربية واليابان ، وكان هذا التأثير ذا أثر ملموس وبعيد فى الوقت ذاته ، وبدا الرأى العام العالمى يشعر أنه من الصعب أن يحس بالأمن والدفء والرخاء . وهناك ملايين من البشر يعانون من الظلم ، ويعيشون أكثر من ربع قرن فى الخيام ، وجعل سلاح البترول مزيداً من الأمريكيين العاديين يتقبلون خطوط المنطق والأخلاق أكثر مما فعلته كل العقود السابقة من الشرح والتفسير . والرأى العام الأوربى أيضاً قد اقتنع تماماً بأن من كانوا يدعون « اللاجئين .. والإرهابيين » أصبحوا اليوم يدعون شعب فلسطين ، واقترن ذلك « بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى » .

وبدأ الضباب ينقشع عن جوهر الصراع العربى الإسرائيلى ، فاكتشف الرأى العام الأوربى الحقيقة ، وهى أن فلسطين هى جوهر هذا الصراع ، وأنه مالم تحل المشكلة الفلسطينية فلن يكون هناك سلام فى الشرق الأوسط ، وأن إسرائيل لم تعد واحة فى الصحراء ، إنما أصبحت أوضاعها الاقتصادية متردية ، حيث

كلفت هذه الحرب الإسرائيليين غالياً ، فالمعركة تكلفت أكثر من سبعة بلايين من الدولارات أى ألفى دولار لكل رجل وامرأة وطفل من شبان إسرائيل – فضلا عن أن الأزمة السياسية أخذت تعصف بإسرائيل ، وأزمة الثقة التى يعانيها سكان إسرائيل فى حكامها ، وأزمة الشباب الإسرائيلى الذى يتوق للسلام ويحجبه عنه جيل الحرس القديم ويدفعونه للحرب .

غير أن الرأى العام الأوربى استنكر فى نفس الوقت أحداث العنف التى قامت بها المقاومة الفلسطينية آنئذ ، وإن كان ذلك مشوباً بالعطف وتلمس الأعذار للشعب الفلسطينى .. وإن وراء مآسى الشرق الأوسط يقف السوفييت حريصين على مصالحهم فى المنطقة ، فضلا عن أن استمرار المنافسة بين القوى الكبرى هى التى تسببت فى جميع الحروب المعاصرة فى المنطقة ، باستثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ . التى جاءت كأول فعل عربى تجاه إسرائيل . وإن قناة السويس وبترول العرب وموانيهم ومناطق النفوذ ترقد وراء نيران الشرق الأوسط ، وليس مايسمى بالخلافات العنصرية وإن أفضل شىء للتخلص من أعمال العنف هو الحل الذى لايمكن الهروب منه لمدة أطول من ذلك ، والذى يعتبر أشد التحديات التى يواجهها الجميع ، ألا وهو العمل على التوفيق بين مطالب الشعب الفلسطينى فى الحصول على شخصيته الوطنية والحصول على وطن له .. وأيضاً مطالب إسرائيل بدعم أمنها القومى والمحافظة على كيانها الإقليمى وعدم التفريط فيه ، أيضاً تم وضع الصفوة الإسرائيلية أمام الاختيار الصعب بين عديد من البدائل ، فإما الحصول على مزيد من المعونات العسكرية والاقتصادية من الولايات المتحدة ، وإما الارتباط رسميًّا وفعليًّا بإطار تحالف معها ، لكن هذه المقولات برغم التصاقها بالفعل بإسرائيل منذ إنشائها .. قد غفلت أو

تغافلت أن الحل الناجح للصراع هو أن تتبع إسرائيل سياسة تقوم على تخفيف العداوة مع الشعب الفلسطيني والدول العربية المجاورة ، وأن تتوقف عن إثارة المشكلات وأعمال القمع تجاه الشعب الفلسطيني ، وأن تعترف بأن أحداث التاريخ لم تأت لنا بمثال واحد فقط استطاعت فيه قوى القمع أن تكبح جماح اندفاعات المقاومة الوطنية .

أما عن الوقائع التاريخية لهذه الفترة .. فإننا نجد أن مصر قد واصلت سياستها القائمة على إعطاء الفرصة الكاملة للدبلوماسية الأمريكية لتقديم ماتستطيع فى هذا الصدد ، مادام السوفييت لم يتبوءوا المكانة اللائقة بهم ، بل إن مصر استمرت فى هذا الموقف وبذلت جهوداً شاقة ودائبة ، حتى بعد أن فشلت محاولات التوصل إلى اتفاق ثان لفصل القوات بين مصر وإسرائيل فى أوائل عام ١٩٧٥ ، وكان من نتيجة ذلك : التقاء الرئيس السادات بالرئيس الأمريكى فورد فى سالزبورج بالنمسا ، وهو اللقاء الذى تضمن الاتفاق على استئناف المحاولة من جديد للتوصل إلى اتفاق ، وقد كللت جهود مصر بالنجاح بنفس طريقة الاتفاق الأول .. أى بمبادرة أمريكية منفردة دون أية مشاركة من السوفييت الذين أعلنوا هذه المرة معارضتهم الصريحة للاتفاق ، وهو ماوصفه السادات بأنه تحريض سافر ومحاولة لشق الأمة العربية .

وهكذا واجه السوفييت انتكاسة خطيرة فى دولة من أهم دول المنطقة وأكثرها تأثيراً ، وكانت النتيجة أنهم ارتبطوا أكثر وأكثر بالأطراف العربية الأكثر تطرفاً فى العالم العربى ، ولو أنهم تركوا العرب وشأنهم لاستطاع العرب أن يتغلبوا على مايواجههم من صعاب ، ولتمكنوا من إيجاد الحلول المناسبة لمشاكلهم ولقضية فلسطين .